

الوصل تراثياً وإنسانياً في مفهوم الفطرة لدى محمد الطاهر ابن عاشور

محمد الطاهر الوافي*

med.tahir@hotmail.fr

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.. ف لا شك أن الناظر البصير في تجديد المدركات العلمية في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، يستلفت نظره ما تميزت به فئة من أهل العلم والنظر من القدرة على معالجة القضايا الراهنة للأمة، في ضوء التطورات الحضارية من خلال المدركات الجماعية، مع الحفاظ على الخصوصيات، والاتسام بالدقة في العرض والتحليل والاستدلال والتعليل، وهو ما تميزت به أعمال فئات كبار المفكرين المصلحين المعاصرين، ومن بينهم العالم المصلح المجدد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (ت. 1393هـ / 1973م) صاحب: "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير كتاب الله المجيد"، و"أصول النظام الاجتماعي في الإسلام" ومقاصد الشريعة الإسلامية وغيرها.. وكان مما أولاه عنايته واهتمامه تأصيل المدركات الجماعية، مما له تعلق بالبشرية، مفهوم الفطرة الإنسانية وهو ما سنغنى بدايةً ببيانه [1]؛ ثم سنعرض لدلالة مفهوم الفطرة لدى ابن عاشور [2]؛ وكيف يُغني مفهوم الفطرة الإنسانية ويعزّز تجديد المدركات الجماعية [3]؛ وكيف وظف ابن عاشور هذا المفهوم وطبقه في واقعه [4].

[1] تأصيل مفهوم الفطرة: الفطرة مأخوذة من قولنا: "فطر الله الخلق؛ أي: خلقهم، وابتدأ صنعة الأشياء؛ وهو فاطر السماوات والأرض"؛¹ وعليه؛ فإن كل ما خلق الله وفطره يحمل أثر ذلك الخلق وطابعه، لقوله تعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)²، ولحديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه..³؛ فهذا الحديث قد حظي بعناية الكثير من أكابر علماء الشأن؛ فأما حمّد الخطابي فقال في شرحه: "كل مولود من البشر إنما يولد في مبدأ الخلقة، وأصل الجيلة، على الفطرة السليمة، والطبع المتين لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن هذا الدين موجود حسنه في العقل ويسره في النفوس؛ وإنما يُعْدل عنه من يعدل إلى غيره ويؤثره عليه؛ لآفة من آفات النشوء والتقليد، فلو سلم المولود من تلك الآفات، لم يعتقد غيره، ولم يختار عليه ما سواه؛ ثم يمثل بأولاد اليهود والنصارى في اتباعهم لأبائهم، والميل إلى أديانهم، فيزولون بذلك عن الفطرة السليمة، وعن المحجة المستقيمة."⁴

أما ابن قتيبة فقد ربط بين الحديث وآية أخذ الميثاق قائلاً: "وأما قوله: "كل مولود يولد على الفطرة"؛ فإنه يريد أنه يولد على الإقرار بالله وهو الميثاق الذي أخذه الله عليهم حين أخرجهم من ظهر آدم أمثال الدّر⁵ (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى)⁶؛ فالتناس جميعاً وإن اختلفوا في أديانهم ونحلهم عالمون بأن الله عز وجل خالقهم"⁷

ووجه آخرون الحديث المذكور بأن الله قد فطر الناس على الإنكار، والمعرفة، والكفر، والإيمان، فأخذ من ذرية آدم ميثاقاً حين حلفهم فقال: (ألست بربكم)؟ قالوا جميعاً بلى؛ فأما أهل السعادة فقالوا بلى على معرفة به طوعاً من قلوبهم، وأما أهل الشقاء فقالوا بلى كرهاً لا طوعاً، وتصديق ذلك قوله تعالى: (وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً)⁸، وكذلك قوله تعالى: (كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة)⁹. وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم"¹⁰.

وعليه؛ فإن حاصل مفهوم الفطرة يدور حول قابلية الإنسان السليم الفطرة لإدراك وجود الله بناء على عظيم صنعه، ومن أدلة عظيم صنعه خلق الإنسان نفسه؛ لقوله تعالى: (فلينظر الإنسان مم خلق)¹¹ وقوله: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)¹².. وبعد النظر والتبصر يحصل الإيمان والتصديق بالخالق، واتباع أوامره ونواهيه لمن سلمت فطرته، ولم تتعرض لعوارض تصرفه عن ذلك، كتهويد أبويه له وتنصيرهما، وإغواء شياطين الإنس والجن له.

قال صاحب المفهم: "إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول، وعلى تلك الأهلية أدركت الحق. ودين الإسلام هو الدين الحق"¹³

[2] مفهوم الفطرة لدى ابن عاشور: وأما ابن عاشور فلا يبتعد عن ما ذكر بقدر ما يمعن في تأصيله والاستدلال له، مع محاولة الربط بثقافة العصر، وجعل المفهوم من مرتكزات تجديد مدركتنا الجماعية، في جوانبها الإيجابية لصالح الإنسانية؛ ولذلك فإنه ينطلق في توجيهه لمدرک مفهوم الفطرة، من كونه يرتبط بالصفحة البيضاء التي تعكس صفاء أصل الخلقة الإنسانية، وما أودع في الإنسان من الخير والكمال الأصلي في طهارته، "ما لم تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل"¹⁴؛ لقوله تعالى: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)¹⁵. ومن شأن الإيمان بالله أن يرفع صفاء الفطرة وسلامتها من الخطأ والضلال¹⁶؛ لأن الله تعالى فطر الإنسان في أول نشأته على الفطرة السليمة؛ وهذا مما يقتضي تنمية المدرك الجماعي من رصيد الفطرة لدى كل الأفراد بالتعاهد والتوجيه والإرشاد، حتى يبقى هذا المدرك سليماً من الاعوجاج والفساد؛ ولذلك حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم جوهر رسالته في قوله: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق»¹⁷.

[3] توسيع فهم المدرکات الجماعية انطلاقاً من مفهوم الفطرة عند ابن عاشور: إن عملية تجديد النظر وتوسيع المفاهيم شغلت المهتمين بالإصلاح في العصر الحديث، فكان ذلك حاضراً في اهتمامات ابن عاشور، لا سيما حينما ينظر إلى ثقافة الآخر ومنازعها نحو البحث و التجديد؛ موسعاً مفهوم الفطرة ومعتبراً إياه مدرکاً جماعياً، وقاسماً مشتركاً بين بني الإنسان، يمكن جعله وسيلة لتعميق التواصل البناء بين مختلف الشعوب؛ ويتجلى ذلك فيما جُبلوا وفُطروا عليه من معرفة خالقهم ومدبر أمرهم والمتحكم في مصيرهم الجماعي، بموجب تلك الفطرة العقلية التي لم تتغش بغشاوة العناد، ولم تغالبها ضلالات العادات واتباع الكبراء، وتجاذبات ذميم العوائد في الأمم، واعتقاد المذاهب ورعونات الجماعات البشرية مما يتسبب في فسادها. وعودة بهم إلى هذا الأصل الذي كانوا عليه من قبل؛ بدليل قوله تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)¹⁸؛ ولذلك قال: "والمقصود من الآية على هذا الوجه، التنبيه على أن التوحيد والهدى والصالح هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها حين خلقهم كما دلت عليه آية: (ألمست بربكم)"¹⁹.. ويدخل فيها كذلك الفضائل أو الآداب العتيقة المفضية إلى الصلاح، والتي ارتاض كافة عقلاء البشر على التحلي بها؛ ليقينهم بأنها تفيد كمالهم الإنساني؛ فيأخذون عزمهم على تفسير آلات العمل الإنسانية (التي هي الجوارح وما إليها) فتكون اندفاعاتها إلى وظائفها العملية على نحو ذلك الإدراك، وتلك الإرادة وذلك العزم²⁰.

هذا فضلاً عن أن أصل دين الإسلام مبني على ما تشهد به الفطرة وما يقره التوحيد والسماحة واليسر والشكر وإعلان الحق وغيرها من الأصول المقررة في الدين، والتي تمتاز حسب رؤيته التجديدية بصراحتها²¹؛ بحيث يتكرر في الخطاب القرآني ما تستقرى منه دلالتها القطعية، مصداقاً لقوله تعالى: (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن)²²، وقوله تبارك وتعالى: (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم...)²³، ومعنى هذا أن أصل الاعتقاد في الدين جار على مقتضى الفطرة العقلية، وأما تشريعاته وتفاريعه فهي إما أمور فطرية إما جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به، وإما أن تكون لصالحه مما لا ينافي فطرته، فقوانين المعاملات راجعة إلى طلب المصالح وهو من الفطرة وهكذا. وإن بني الإنسان إذا أردوا تواصلاً وتعايشاً في سلم وسلام وأمن وأمان، فليرجعوا إلى ما ارتكز في فطرتهم وأصل خلقتهم في مجال ما يدعوا إليه الإسلام من توحيد الخالق ووحدانية الرسالات السماوية؛ لأنه "لما أخبر بأنهم كانوا أمة واحدة، ونحن نرى اختلافهم علمنا أنهم لم يدوموا على تلك الحالة"²⁴.

والحال أن طبعهم متبني لقبول الدين، وهم وإن اختلفوا في أديانهم ونحلهم عالمون بأن الله عز وجل وحده هو خالقهم؛ فكانت مسألة إصلاح الفطرة إصلاحاً جزئياً مسألة متجددة ببعثة النبيين، ولذلك "كان هديهم مختلف الأساليب على حسب اختلاف المصالح والأهلية وشدة الشكائم، فكان من الأنبياء الميسر، ومنهم المغلظ، وأنه بعث محمداً لإكمال ذلك الإصلاح، وإعادة الناس إلى الوحدة على الخير والهدى وذلك معنى قوله: (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)"²⁵.

فالمقصود من الآية على هذا التأويل إظهار أن ما بعث الله به النبيين قد وقع فيه التغيير والاختلاف فيما بعثوا به، وأن الله بعث محمدا بالقرآن لإرشادهم إلى ما اختلفوا فيه فيكون المقصود ببيان مزية دين الإسلام وفضله على سائر الأديان بما كان معه من البيان والبرهان.²⁶

[4] الفطرة عند ابن عاشور على مستوى التطبيق: عمل ابن عاشور - رحمه الله - في تأليفه على جعل مفهوم الفطرة كمركز أصلي من مرتكزات مدركاتنا الجماعية مرتبطا بأصل خلق الإنسان (في أهم مدرك متين في تاريخ الإسلام هو مدرك الشورى²⁷ المستند إلى سلامة الفطرة؛ فمنذ أن اقتضت مشيئة الله استخلاف بني آدم في الأرض؛ في قول الله تبارك وتعالى: ((وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة))²⁸؛ وعند قوله تعالى ((فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر))²⁹، موضحا أن مدرك الشورى من مقتضيات الفطرة الإنسانية ومن موجبات الفطرة الإنسانية الصادقة³⁰. وموجها: "فمن الفطرة وسلامتها تشاور المرء في ما يرغب في الإقدام عليه لمحبهه الصلاح وتطلبه النجاح في مساعيه، وهذا مما جبل الله عليه الإنسانية.. وإنما يلهمي الناس عنها حب الاستبداد، وكراهية سماع ما يخالف الهوى، وذلك من انحراف الطبائع وليس من أصل الفطرة، ولذلك يهرع المستبد إلى الشورى عند المضايق"³¹.

كما أنه رحمه الله وظف قاعدة سد الذرائع المفضية إلى الفساد في نهى الله سبحانه عن التمني بما فضل الله به بعض الناس على بعض فقال عز وجل: ((ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض))³².. ويقول ابن عاشور في هذا الصدد معللا رأيه³³: لأن ما يفضي إليه [التمني المنصوص عليه المنافي للطبع السليم والفطرة الإنسانية الصادقة] من الافتتان في تدبير الحيل لتحصيل ما تمناه من ما ليس بيده، أو الاستئثار بما تمناه عن صاحب الحق كتمني أنصباء الوارثين، وتمني الاستئثار بأموال اليتامى ذكورهم وإنائهم، ونوال ملك.. كل هذا يفسر أن الحاجات أو التحسينات إذا كانت جارية على وفق الطباع المنحرفة عد ذلك من موجبات الانحطاط في أحوال المجتمعات البشرية والأمم، أما إذا كانت جارية على وفق الطباع السليمة فإن ذلك من موجبات الرقي في أحوال الأمم والشعوب.

خلاصة: لقد تبين حضور وراهنية المدركات الجماعية في العصر الحديث مع مفسر بصم رؤيته التجديدية في التفسير فكان من رواده، و جلى رؤية هذا المدرك و في جملة من تأليفه أبرزها تفسير التحرير والتنوير؛ مستوعبا مقصود الخطاب الشرعي وتراث الفقه الإسلامي والثروة الفقهية لأكابر العلماء الذين بذلوا الغالي والنفيس في خدمة هذا الخطاب وتقريب رؤيته ومقصوده.. ويتأكد مما سلف أن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وفق في اختيار الأوجه والأنسب لما يحمله من هم من هموم الأمة التي يرى أن ملاذها وملجأها في خطاب ربها الذي هي في حاجة إلى بلسمه لعلاج أدوائها وأمراضها التي أقعدت بها عن مسيرة الركب الحضاري للأمم المعاصرة من خلال ما أسسه ابن عاشور للإصلاح الاجتماعي عن طريق توسيع المدرك النصي. وذلك هو مراد المجددين المصلحين الذين ياتي دورهم في كل وقت وحين.

- * باحث في سلك الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط الرباط
- ¹ العين للخليل بن أحمد الفراهيدي مادة: " فطر".
- ² سورة الروم، الآية: 29.
- ³ صحيح البخاري، ح. 1358.
- ⁴ معالم السنن للخطابي (4: 326). ط. 1 العلمية حلب 1351 هـ - 1932 م
- ⁵ الذر: جمع ذرة، وهو أصغر النمل. معجم ديوان الأدب للفارابي (ت 350 هـ). (3: 5). / دار الشعب القاهرة 2003 م.
- ⁶ الأعراف، الآية: 172.
- ⁷ غريب الحديث لابن قتيبة (1: 351). ت. د. عبد الله الجبوري، ط. 1: مطبعة العاني - بغداد، 1397 هـ.
- ⁸ آل عمران، الآية: 82.
- ⁹ الأعراف، الآية: 29. / الاستذكار لابن عبد البر القرطبي (3: 107)، ط. 1. الكتب العلمية - بيروت 1421 - 2000
- ¹⁰ صحيح مسلم، ح. (2865).
- ¹¹ سورة الطارق، الآية: 5.
- ¹² سورة الذاريات، الآية: 21.
- ¹³ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (ت. 656 هـ) (6: 676). ط. 1. (دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب دمشق - بيروت)، 1417 هـ
- 1996 م
- ¹⁴ التحرير والتنوير (2: 49).
- ¹⁵ التين، الآية: 4. 6.
- ¹⁶ التحرير والتنوير (2: 302)
- ¹⁷ موطأ مالك (2: 904)، باب ما جاء في حسن الخلق. ح. 8. / التحرير والتنوير (2: 49).
- ¹⁸ سورة البقرة، الآية: 211.
- ¹⁹ سورة الأعراف، الآية: 172. / التحرير (2: 301).
- ²⁰ التحرير والتنوير (3: 194) / أصول النظام الاجتماعي بتصرف: 123.
- ²¹ نفسه (3: 196)
- ²² سورة آل عمران، الآية: 20.
- ²³ سورة الروم، الآية: 30.
- ²⁴ نفسه.
- ²⁵ البقرة، الآية: 211.
- ²⁶ نفسه (2: 302).
- ²⁷ التحرير والتنوير (4: 150).
- ²⁸ سورة البقرة، الآية: 30.
- ²⁹ سورة آل عمران، الآية: 159.
- ³⁰ عرفها الشيخ ابن عاشور فقال: " هي مقدمات وآراء مشهورة محمودة أوجب التصديق بها : إما شهادة الكل مثل: أن العدل جميل وإما شهادة الأكثر، وإما شهادة العلماء أو الأفاضل منهم " التحرير والتنوير (21: 91).
- ³¹ التحرير والتنوير (4: 150) / ومثله أول جرم حصل في الأرض: حادثة قتل آدم أخاه يعتبرها ابن عاشور فلتة نشأت عن إحساس وجداني هو الجسد مع الجهل بمغبة ما ينشأ عن القتل؛ لأن البشر لم يعرف الموت إلا يومئذ ولذلك أسرع إلى الندامة (أي رجع إلى أصل الفطرة الذي هو الصلاح) التحرير والتنوير (2: 305).
- ³² سورة النساء، الآية: 32.
- ³³ مستفاد من التحرير والتنوير (2: 304، 305).